BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

منتدى الحوار

Dialogue Forum

(DF)

من النقــل إلــى الإبــداع

صلاح فضل:

ربما لا يذكر الصديق الدكتور حسن حنفي أول مرة لقيته فيها، كنت في منتصف السبعينيات أعمل أستاذا زائرا في جامعة المكسيك، وكان من أسباب ذهابي إلى أمريكا اللاتينية حينئذ أن المعهد العالي في المكسيك يعد للمؤتمر الدولي الثلاثين للمستشرقين، ويريد أن يُشرك أستاذا عربيا في الإعداد لهذا المؤتمر، واختاروني للقيام بهذه المهمة، فأخذت أنسق مشاركة الأساتذة العرب من كل الأقطار، ولأن حبنا لمصر وولاءنا لها يظل ملازما لنا ويحتد ويلتهب كلما بعدنا عنها، أردت أن أبرز الاسمين اللذين كانا مدعوين إلى هذا المؤتمر وهما الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا شفاه الله من جيل الكبار، والأستاذ الشاب حينئذ حسن حنفي من جيل الشباب، ولكي أكرمهما وضعتهما رئيسين لجلستين من جلسات المؤتمر حتى يديرا حوار كبار العلماء المستشرقين من كل أنحاء العالم، فإذا بي أفاجأ بالدكتور حسن حنفي يرفض رفضا قاطعا أن يرأس الجلسة العلمية لأنه في هذه اللحظة كانت هناك جلسة أخرى موازية وقال لي إنه يريد أن يسمع الناس ويتعلم منهم لا أن يقوم برئاسة جلسة أخرى، ودهشت جدا لهذا العالم الشاب الذي لا يود أن يرأس كوكبة من علماء العالم لأنه يريد أن يتفرغ للإنصات وللتعلم وللبحث، وعلى الرغم من ضيقي منه حينئذ، إلا أنني أدركت الأمر في نفسي بعد ذلك وقدرت أنه فيلسوف، ولابد أن له أسبابه وهي أسباب معرفية أدركت عمقها فيما بعد لهذا الرفض.

أحدث الدكتور حسن حنفي في الفكر العربي والإسلامي مجموعة من الزوابع المتتابعة، وشهدته في لحظة أخرى في تطوان منذ قرابة عشر سنوات وهناك صفوف من الأساتذة والطلاب الممتدة عبر مئات الأمتار تسعى إليه بنسخ من كتبه كي يوقع عليها، كنا في مؤتمر آخر له فيه محاضرة ولي فيه محاضرة أخرى، وخطر في بالي أنه ربما كان جمهوره في هذه الأقطار أغزر وأكثر متابعة وحرصا على قراءته من جمهوره من تلاميذه في مصر على الرغم من أنه كوّن مدرسة من شباب الباحثين وكهول القراء والدارسين من كلية الآداب قسم الفلسفة، غير أن إنتاجه الغزير المتدفق المتوالي، وفكره الخصب الوثاب الذي يسبق الزمن دائما والذي سنشهد دليلا عليه في محاضرته الليلة في محاضرته عن موضوع الانتقال بالفكر العربي والفكر الإسلامي من النقل إلى الإبداع.

غير أن هذه المحاضرة تأتي في لحظة مفصلية يواجه فيها الإسلام والمسلمون مشكلات بعضها فُرض عليهم من الخارج وبعضها منبثق من داخلهم، ولعلها من أعنف المشكلات التي تواجهنا اليوم، ولا مفر لتطواف الدكتور حسن حنفي الفكري أن يلم بها في هذه الأمسية تتمثل في ثلاثة أسئلة أطرحها عليه في مقدمة هذه الندوة، السؤال الأول: إذا أمسكت بنموذج للكرة الأرضية ستجد الصورة في مجملها أن المسلمين هم الذين يقطنون الحارات الضيقة المظلمة منها، وهم الذين يقعون في منطقة التخلف من هذه الكرة، والسؤال هو لماذا؟ هل هناك رابط بين فهمهم لدينهم وبين هذا الوضع الحضاري المحزن الذي يشملهم جميعا؟ وما هو سبيل الخروج من هذا الارتباط؟ السؤال الثاني: ولعله أكثر إيلاما ومساسا بواقعنا اليوم، وللدكتور حسن حنفي نظرية في الاستغراب يرد بها منذ أن حضر هذا المؤتمر منذ نيف وثلاثين عاما على نظريات المستشرقين والاستشراق، هؤلاء المسلمون فقدوا نسبيا احترام العالم، لم يعد العالم يحترمهم، وما حدث مؤخرا من تشويه صورة الرسول عليه الصلاة والسلام في بعض وسائل الإعلام الغربية مجرد مؤشر لهذا الاحتقار الذي تقفه الثقافات المنتصرة من ثقافتنا العربية والإسلامية، والسؤال هو إلى أي حد نحن مسئولون عن هذا الاحتقار الذي نواجه به؟ والسؤال الثالث: ما هي آلياتنا ووسائلنا لاسترداد احترام العالم لنا والخروج من هذا المأزق الذي نجد أنفسنا فيه؟ هل الغضب والاحتجاج والتظاهر الجماعي والمقاطعة الاقتصادية، هل هي الوسائل الناجعة لكي نكتسب احترام الآخر؟ وهل هذا الاحترام يُفرض بالقوة أم يُكتسب بالممارسة؟ وإذا كنا على يقين من أن فكرنا الديني السامي وتاريخنا الحضاري الرفيع يؤهلاننا كي نظفر باحترام الناس، فإلى أي حد نحن مسئولون عما انتهى إليه هذا الوضع؟ هذه بعض شجون أعبر للدكتور حسن حنفي عن بعض ما يدور في نفوس حضور هذا المنتدى لعله يأخذها في اعتباره وهو يسبح بهم في قاربه الجميل والنشط لكي ينتقل بالفكر من النقل إلى الإبداع.

حسن حنفي:

أثار في الدكتور صلاح فضل شجونا من شجون جيل ننتمي إليه ونعتز به. وهو الجيل الذي حاول أن يبني مصر ثم تعثر الركب. ومازلنا نحاول أن نعيد للركب قيامه. وهذا المؤتمر الذي تم منذ أكثر من ثلاثين عاما لأول مرة يتغير عنوان الاستشراق والمستشرقين ليصبح مؤتمر العلوم الإنسانية في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية بناء على نقد المركزية الأوروبية. وكنا كوكبة من المفكرين العرب نحاول قدر الإمكان أن نؤثر في مسار الثقافة العالمية والعلوم الإنسانية. الأمل لم يضع بعد، ومصر لم تنهار بعد، على الرغم مما فيها من أحزان في الداخل وفي الخارج. ومع ذلك فهذه ليست أول مرة نتعثر، ولا أول مرة تتشابك الصعاب، ولا أول مرة يحيط بنا الأعداء من الداخل والخارج. فمصر باقية منذ ثلاثة آلاف عام أو أكثر ﴿**ويقولون متى نقول عسى أن يكون قريبا**﴾.

وفي هذا الإطار، أود أن أشخص الحالة الراهنة للثقافة العربية، وكيف نحاول أن ننقلها مما نشعر به جميعا، أن أزمتها هو النقل والتكرار والترديد، وغياب أية رؤية جديدة في كل المجالات، وليس فقط في الفكر. كيف نحاول أن ننتقل من النقل إلى الإبداع أي القدرة على القفز من مرحلة إلى مرحلة ومن مستوى إلى مستوى إلى طفرة كما يقول برجسون بعد كمون حتى نستطيع أن نتغير، ليس تدريجيا على نحو كميّ بل بالقفزة على نحو كيفيّ، وهكذا تفسر الثورات والانكسارات والتحولات الرئيسية في تاريخ العالم.

إذن، فالأزمة من النقل إلى الإبداع، ليست فقط في الأدب ولا في الفكر، بل تمتد أيضا إلى السياسة. والكل يقول ألا تستطيع مصر أن تفعل أكثر مما هي فيه في الاجتماع وفي الحياة وفي التقاليد وفي التربية؟ وتتكاثر وتتراكم التقاليد علينا لدرجة أننا يصعب في الحياة الاجتماعية أن نخترقها؟ فالقضية من النقل إلى الإبداع هو موقف حضاري عام. والنقل بالمعنى القديم ليس هو التكرار والترديد، ولكن بمعناه القديم يعني الترجمة، مثلا نقل حنين بن إسحاق يعني ترجمة حنين بن إسحاق، إذن فالنقل بالمعنى القديم يعني انفتاحًا على الآخرين، ومعرفة بهم، ونقلاً لثقافتهم، فالنقل قديما كان له معنى إيجابي. أما النقل حديثا فهو يعني التكرار، ونقل المعلومات وليس إبداعها. النقل حديثا يعني التقليد والتكرار والتبعية. وهناك دراسات جامعية عديدة تقوم على الاستبيانات، وعلى دراسة الحالات لغلبة مناهج النقل على الإبداع في جامعتنا وفي مدارسنا وفي مراكز أبحاثنا. وهي معروفة عند المتخصصين، لكنني سأستخدم المنهج الوصفي الظاهراتي الذي يصف تجارب النقل والإبداع في حياتنا المعاصرة بتحليل التجارب ووصفها وصفا مباشرا، وإشراك الآخرين معي. في هذا النوع من التجارب به نوع من الصدق أو من التصديق، وكما يُقال في المنطق أن الصدق ليس في مطابقة الحكم للواقع، ولكن الصدق في مدى التطابق في تحليل التجارب المعاصرة بين المتكلم وبين السامع. وأود أن أستعمل لغة سهلة وبسيطة دون الدخول في المصطلحات العلمية والنظريات التفسيرية.

إن النقد كما قلت هو موقف حضاري عام له أسبابه، وهو أننا محاصرون في الزمن، محاصرون بين الثقافات، لا ندري كيف نخرج من هذا الحصار. لذلك، فإن كتابي الأخير الصادر في ثلاثة أجزاء حول حصار الزمن، كيف أن الماضي مازال يأسرنا، وكيف أن الغرب الذي يمثل المستقبل مازال يشدنا، وكيف أننا لا ندري كيف نستطيع أن نشخص الحاضر. وبالتالي فنحن محاصرون في كهف بين ثلاثة حوائط، بين الماضي الذي مازال يعيش في الحاضر والمستقبل الذي نحاول أن نقفز عليه خاصة من النخبة الثقافية والحاضر الذي لا نستطيع أن نشخصه. وكنت أتحدى الطلاب باستمرار في دروس فلسفة التاريخ قائلا لهم هل يستطيع أحدكم أن يجيب على هذا السؤال: في أية مرحلة من التاريخ أنا أعيش؟ هل أنا في مرحلة نهضة أم في مرحلة كبوة أم في مرحلة ثورة أم في مرحلة ثورة مضادة أم في مرحلة إصلاح أم في مرحلة استقطاب بين علمانية وسلفية أم في مرحلة حيرة أم في مرحلة إفلاس؟ حقيقة لا ندري، ومن ثم، إذا صعب تشخيص اللحظة الراهنة التي نمر بها فكيف نشخص، وكيف نقترح الحلول؟ في بعض الأحيان، نقوم بأدوار أجيال مضت، فنقع في السلفية أو نقوم بدور أجيال قادمة فنقع في الطوباوية. ولا أحد منا يقوم بدوره الخاص نظرا لصعوبة تشخيص طبيعة المرحلة الراهنة.

والنقل سمة حضارية عامة، أن ننقل من القدماء لأن القديم مازال يعيش فينا، وننقل من الغرب الحديث. فمنذ مائتي عام، منذ الطهطاوي أو قبله بقليل، مازلنا ننقل عن الغرب الحديث. وأهم مشروع وهو مشروع الألف كتاب الأولى، ثم مشروع الألف كتاب الثانية في الترجمة، ثم المشروع القومي للترجمة الذي سنحتفل به الأسبوع القادم بداية من مشروع الترجمة الثاني ... إلخ، وبالتالي نقل المعلومات. ولا توجد ثقافة بها هذا القدر الهائل من الترجمة عن الغرب مثل الثقافة العربية. صحيح إن اليابان والصين بهما قدر معقول، ولكن من أجل الاستفادة منها وتحويلها إلى برامج وطنية وليس من أجل أن تزدوج الثقافة كما يقول الدكتور زكي نجيب محمود "عربــيّ بين ثقافتين". ولا أدري ما العلاقة بين علوم الوسائل وعلوم الغايات؟ وهذا تصنيف القدماء، حيث إن علوم الوسائل هو ما أنقله عن الآخرين وعلوم الغايات، هي علوم العرب أي علومنا، وعلوم العجم أي الحضارات الوافدة، والعلاقة بين الاثنين، بين الوافد والموروث. ومن ثم تظل ثقافتنا مزدوجة، ننقل من القدماء وننقل من المحدثين. وقد قمت بتحليل مضمون للرسائل الجامعية التي قُدمت في جامعة القاهرة في قسم الفلسفة لكي أعرف أي موضوع نختار لأن الجامعة قررت ذات مرة وضع خطة وطنية للبحث العلمي. ووجدت أن كل الرسائل بلا استثناء إما نقل من القدماء كالكندي والفارابي وابن سينا وابن تيمية ... إلخ وإما نقل من المحدثين ديكارت وكانط وهيجل وشوبنهور. وأتساءل أين الواقع المُعاش؟ وأين تحليل الموضوعات التي نعيشها؟ فمثلا قضية الولاء والانتماء، أو قضية العقل، ليس العقل كما قال الفارابي أو كما قال كانط، بل العقل كما يحاول الباحث المعاصر أن يدرسه بملاحظاته وبتجاربه، لكن للأسف لم أجد أبدا موضوعا مستقلا عن هذين التراثين، بين الوافد والموروث، وكلاهما نقل. والسؤال هو أين الإبداع؟ أين اجتهاد الباحث؟ وإذا ضربنا مثلا بكانط فسنجده تحدث عن نقد العقل الخالص، ولم يتحدث كانط عن العقل عند توما الإكويني أو عند أرسطو أو غيرهما، بل حاول هو أن يحلل طبيعة العقل وكيف يعمل. ويتساءل البعض ما إذا كانت لدينا فلاسفة، والقضية ليست الفيلسوف بالمعنى النسقي، ولكن كل من يحاول أن يخرج من نطاق النقل من القدماء والمحدثين إلى الاتجاه إلى موضوع يحاول أن يحلله وأن ينظِّره تنظيرا مباشرا، فهذا هو الفيلسوف، لكن ماذا يكون الحال عندما يُحاصَر الفيلسوف بالقديم والجديد دون أن يدري كيف يشخِّص الواقع. وهنا تظهر أزمة النقل والإبداع الذي أسميه حصار الزمن. لذلك، غلبت على الدراسات التكرار والتبعية والخوف من المبادرة، والتقليد واتباع سلطة الآباء والأساتذة والسلف، أي ما وصفه المرحوم هشام شرابي بالمجتمع البطريركي أو المجتمع الأبوي وهو ما صوره نجيب محفوظ في الثلاثية في شخصية "سي السيد".

إذن، كيف نستطيع أن نعبر هذه الأزمة والتي تتمثل خطورتها في التوقف في المكان، فما دمنا محاصرين لا نستطيع أن نخرج، فنحن متوقفون في المكان، ومحاصرون في الزمن، وموجودون خارج التاريخ، والعالم كله يتحرك. فأمريكا تتحرك ولديها مشروع الإمبراطورية الجديدة. وإسرائيل تتحرك ولديها مشروع إسرائيل الكبرى، وآسيا تتحرك، والهند والصين واليابان وكوريا وتايوان وهونج كونج إلا المنطقة العربية فهي محاصرة. وهي عبارة عن مياه آسنة راكدة، تتفكك وتنحل إلى عرقيات وطائفيات. ونرى الآن ما الذي يحدث في

السودان والعراق ومصر والتي كثرت بها مؤخرا الحوادث الطائفية، والذي يحدث في المغرب ويهدد أمنه بين العرب والبربر، وما يحدث في الخليج بين السنة والشيعة، إلى آخر ما يحدث في البلاد العربية التي جنوبها إفريقي وشمالها عربي بين الإفريقية أو الزنجية والعروبة، ومن ثم، نظرا إلى أنه إذا غابت الحركة وتوقف الإنسان، إذا لم يتحرك الإنسان، فإن الجسد سينحل.

وأود أن أبين كيف نستطيع أن نخرج من هذه الأزمة، أزمة النقل من القدماء والنقل من المحدثين، وعدم القدرة على التعرف على طبيعة اللحظة الراهنة التي نعيشها. مازلنا ننقل من القدماء، وشتان بين ما أنتجه القدماء وبين احتياجات العصر، شتان بين الظروف التي أبدعنا فيها تراثنا القديم وبين الظروف الحالية التي نعيشها. فعلومنا القديمة نشأت في عصر الانتصار. كانت جيوشنا فاتحة من الأندلس غربا حتى الصين شرقا، أما جيوشنا الآن فهي منكسرة ومحاصرة. فنحن في عصر الانكسار ولسنا في عصر الانتصار. كما أننا كنا ننقل عن الآخرين لكي نبدع. والآن ننقل لكي نتعلم. ونظن أننا نترجم لكي نلحق. ومعدل إسراع التأليف في الغرب أسرع بكثير من معدل الترجمة. نظن أننا نلحق والمسافة تتسع. فنصاب بما يسمى بالصدمة الحضارية. ونرضى بمصيرنا في التاريخ. نلهث وراء الآخرين دون أن نصل. فنتعب ولا ننقل ولا نبدع.

أقول إذن إننا كنا قديما أساتذة، والآن نحن تلاميذ. لقد اختلف العصر، واختلفت المرحلة التاريخية كلية. كنا في القرون السبعة الأولى روادا قبل ابن خلدون. نبدع في العلوم وفي الطبيعيات وفي الرياضيات وغيرها من المجالات. أما الآن فنحن متلقين للعلوم، مستهلكين لعلوم الآخرين. جاءتنا سبعة قرون ثانية نجتر فيها وذلك في عصر الشروح والملخصات والموسوعات والمدونات الكبرى في العصر المملوكي العثماني. والآن نبدأ مرحلة ثالثة منذ الإصلاح الديني وفجر النهضة العربية. ونحاول أن نبني من جديد مصر محمد علي أو مصر الليبرالية أو مصر الاشتراكية القومية. والآن هذه التجارب كلها أصبحت من صنع الذكريات. إذن، فقد اختلف العصر، وهذا يحتم علينا أن نعيد من جديد إبداع حضارة وعلوم وتراث بناء على الظروف التي نعيشها. ولا يعني ذلك الانقطاع عن الماضي، ولكنه لا يعني أيضا التواصل معه وتكراره، لأن العصر قد اختلف، والظروف قد اختلفت، والروح قد اختلفت. هذا هو التحدي الكبير.

والسؤال هو: ما هي الأدوات؟ وخاصة الأدوات التي سأل عنها الدكتور صلاح فضل. وبطبيعة الحال، هناك عدة أدوات، إما أن نعيد قراءة القديم. وعلم القراءة هو علم حديث حيث نقرأ ونؤول ونحرر ونستنبط. هذه طريقة عشناها، وماذا كانت المسيحية إلا قراءة روحية لليهودية، وما هو الإسلام إلا قراءة للتجربتين المسيحية واليهودية، القانون أو الشريعة والمحبة، وفي القرآن الكريم ﴿**وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به**﴾ فهذه هي اليهودية، ثم يكمل ﴿**ولإن صبرتم فهو خير للصابرين**﴾ فهذه هي المسيحية. والإسلام هو هذا الاختيار الحر بين الشريعة أو المحبة والمغفرة. وكانت عظمة هيدجر الفيلسوف الألماني في أنه يقرأ تاريخ الفلسفة من جديد. وكل الفلسفة المعاصرة هي قراءة للقدماء، وبالتالي نستطيع من خلال القراءة وإعادة تأويل القديم أن نحرك وأن نخرج بدلا من أن ننقل القديم. نستطيع أن نعيد الاختيار بين البدائل. اختار القدماء مثلا الأشاعرة لسبب ما، لكن ربما يكون فكر الأشاعرة لا يكفي الآن، وربما يكون فكر المعتزلة أكثر قدرة على التعبير عن حاجاتنا في عصرنا من عقل وحرية وهما ما نحتاجهما. فإن استعصى علينا التأويل كسلاح وإعادة

الاختيار بين البدائل كسلاح آخر فلماذا لا نبدع بدائل جديدة؟ وهل نحن ناقصو عقل ودين؟ ألا نشعر بالتجارب التي نعيشها؟ هل نحن مغتربون عن الواقع؟ ومن ثم، هذه هي بعض الأدوات التي نستطيع بها أن نتواصل مع القديم دون أن ننقله أو نقطع الصلة معه. والحضارة الإسلامية ليست لحظة واحدة في تاريخها، وهي اللحظة اليونانية الرومانية غربا واللحظة الفارسية والهندية شرقا، ولكنها لحظات متجددة. نحن الذين نقف لكن الحضارة تتجدد، وفي كل مرة نلتقي بحضارات مجاورة مما يعطينا فرصة للتجديد طبقا للظروف المعطاة. والآن، تغزونا حضارات جديدة نترجمها ونعرفها منذ مائتي عام، فلماذا لا نعيد بناء العلوم القديمة؟ أو نبدع علوما أخرى جديدة؟ على أية حال، إن الحضارة الإسلامية تدور مع عجلة التاريخ ومع الزمان ولا تتوقف، لكن الذي يتوقف هو الباحث أو المفكر. ويظن أن الحضارة الإسلامية هي التي مضت وتكلست وتقدست وأصبح أئمة الفقه الأربعة وأئمة اللغة وأئمة الكلام والحكماء القدماء، لا يستطيع أحد أن ينال منهم شيئا. فمن كثرة التكرار والرتابة والنقل تحولوا إل مقدسات، مع أن هذا التراث أبدعه رجال. وهم رجال ونحن رجال، نتعلم منهم ولا نقتدي بهم كما يقول أمين الخولي.

وأود أن أضرب بعض الأمثلة، فمثلا في علم الكلام القديم وهو علم أصول الدين الذي ننقله في كل مكان في أقسام الفلسفة وفي كليات أصول الدين وفي البرامج الدينية وفي صفحات الفكر الديني، نجد أن المشاكل هي نفس المشاكل التي نشأت في ظروف قديمة. الظروف قد تغيرت ونحن ننقل نفس المشاكل، وعندما كان الإسلام منتصرا على الأرض وأرادت الفرق الأخرى المسيحية واليهودية والثانوية والزرادشتية الطعن في الإسلام فالتفوا من الخلف لطعن قلب العقيدة وهو التوحيد، فتحدثوا عن ما إذا كان الله منــزها أم مشبها وما إذا كانت له يد أو عين ... إلخ. فانبرى علماء الكلام بالدفاع عن الإسلام من مظان الخطر، وأتساءل الآن أين الخطر؟ هل منا الآن من يشكك في أن الله ليس واحدا وأنه أكثر من واحد مما يستدعي إيجاد البراهين على وحدانية الله؟ هذه قضية كسبناها من قبل، لكن مظان الخطر الآن في ثروات الأمة وفي أوطانها وفي استقلالها وفي شعوبها. فلماذا لا ننبري إلى مظان الخطر الجديدة وننشئ علم الكلام الجديد دفاعا عن الأمة وثرواتها واستقلالها وأوطانها؟ ويسمح القرآن الكريم بذلك. وقد استنبط الأشعري من الآية القائلة ﴿**لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا**﴾ دليلا على الوحدانية، وهذا صحيح. إلا أننا الآن في حاجة إلى فلسطين والعراق وأفغانستان والشيشان وكشمير وسبتة ومليلية وهي أراضي المسلمين المحتلة. وأتحدث باسم عالم الأمة الذي يدافع عن مصالحها. وأقرأ القرآن الكريم فأجد ﴿**إله السموات والأرض**﴾ أو ﴿**رب السموات والأرض**﴾ ثم نجد إسرائيل تطلق على الأرض التي احتلتها "أرض إسرائيل". فلماذا لا نركز على فكرة ملك الله للسموات والأرض كمدخل لنحمس الناس للدفاع عن الأرض؟ وأتساءل هل الدفاع عن الأرض أقل قيمة من الدفاع عن الرسول ضد الرسوم الساخرة منه؟ وهل القدس والمسجد الأقصى أقل قيمة وأقل قدسية؟ بل إنني حللت كلمة "مقدس" في القرآن الكريم، ووجدت أنه يوصف بها الله وتوصف بها الروح القدس وتوصف بها الأرض أيضا في قوله "الوادي المقدس". وبالتالي فالقدسية لله وللروح وللأرض. أستطيع أن أقوم بذلك وأنا ألف الجامعات الأجنبية وأجد أن إسرائيل قد أدخلت في كل الفروع وفي كل الأقسام مادة تسمى "لاهوت

الأرض" أن هذا شعب لا يستطيع أن يعبد الله إلا في هذه الأرض وإلا في هذه المدينة وإلا في هذا المعبد وإلا في هذا الهيكل. أما المسلمون فأينما يولون فثم وجه الله. فليس من الضروري إذن أن تكون فلسطين والقدس والمسجد الأقصى في صلب العقيدة. هذا هو التحدي القديم والذي لا نستطيع إزاءه أن نعيد ما قاله الأشعري حول الذات والصفات والأفعال القديمة. بل نتحول إلى قضية الأرض وما يسمى بلاهوت الأرض ولاهوت التحرير حتى نستطيع أن نتجه إلى مظان الخطر التي تواجهها الأمة. هذا هو الإبداع. فلا معنى لتكرار الأشعري الآن وقد انقضى عهده. حتى في نظرية الذات والصفات والأفعال فهذا هو التأويل الذي يقول إن الله عالم قادر حي سميع بصير متكلم مريد. هذا هو ما قاله الأشاعرة قديما إن الله له صفاته، هذا صحيح، لكن الصوفية قالوا إن هذه الصفات ليست للعبادة ولكن للعمل والتمثل، أي أن يكون المؤمن عالما مثل الله وحيا مثل الله وقادرا مثل الله. ويعني هذا إسقاط الأوصاف الدنية والتحلي بالصفات السنيَّة كما قال الصوفية. وكان السؤال أيهما أفضل أن أعبد إلها عالما قادرا حيا سميعا بصيرا متكلما مريدا وأنا جاهل عاجز ميت لا أسمع ولا أبصر ولا أتكلم؟ أم أن أحول هذه الصفات كمثل للحياة الأخلاقية والاجتماعية والسياسية؟ وهذا هو التأويل، وبالتالي نستطيع أن ننتقل من نقل القدماء إلى إبداع المحدثين. أن نعيد الاختيار بين البدائل حيث كان الأشاعرة اختيار القدماء لأسباب ما حيث الدولة الأموية السنية القائمة التي ترفض المعارضة. وفي هذا السياق، ربما يكون المعتزلة أفضل، والأصول الخمسة عند المعتزلة تنبني على التوحيد والعدل، والتوحيد بدون عدل يكون قهرا، والعدل بدون توحيد يكون نسبيا. فالتوحيد الذي لا يقوم على العدل يكون ظلما. والعقل أساس النقل، والأشياء حسنة وقبيحة في ذاتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ربما لو أعدنا الاختيار من أشعرية إلى المعتزلة قد يساعدنا، وبالتالي نحرك الناس على التفكير من جديد. وقد تحدث الأشعري قديما عن الكسب بمعنى أن الإنسان يكسب أفعاله في تدخل الإرادة الإلهية وأنه هو الذي يعلق إرادته عليه. ليست الاستطاعة قبل الفعل ولا مع الفعل ولا بعد الفعل، ولكن الله يخلق لي استطاعة أكسبها ساعة الفعل. وهذا لا يكفي ونحن في صدد الدفاع عن الحرية. إذن، لماذا لا ننتقل إلى خلق الأفعال وأن لنا استطاعة أن ننتقل قبل الفعل ومع الفعل وبعد الفعل، وأننا أحرار مختارون مسئولون؟ ولماذا تكون الإمامة في قريش كما قال الأشاعرة؟ ولماذا لا نقول إن الإمامة في حكم أي إنسان يقوم بحكم العدل؟ لماذا نحصر الإمامة في قريش قديما وفي الجيش حديثا؟ بل نجعلها عامة للناس ولكل من يحقق النظام العادل. وأتساءل لماذا ينهار التاريخ؟ من الصحابة إلى التابعين إلى تابعي التابعين حتى نصل إلى الآن؟ وهل نحن أقل إخلاصا من الشافعي وأبي حنيفة ومالك؟ وهل المقاومة في فلسطين وفي العراق وفي الشيشان وفي أفغانستان أقل قيمة من عمار بن ياسر؟ فلماذا ينهار التاريخ، ويقل الفضل، ويكون الخلف أسوأ من السلف؟ هذا هو سبب النقل. لماذا يكون الآباء أفضل من الأبناء؟ إذن، علينا أن نغير هذه الأشياء كلها حتى نستطيع أن نقول إن الغد أفضل من اليوم، وإن الجيل الجديد ربما له فرص أفضل من الجيل القديم. ولماذا نقول إن الفرق الثلاث والسبعين المختلفة في الإسلام الناجية منها واحدة فقط واثنان وسبعين فرقة هالكة؟ هذا ظلم. هل يمكن أن يهلك اثنان وسبعون اجتهادا للأمة ولا يتم تقبل إلا اجتهاد فرقة واحدة هي بطبيعة الحال الفرقة الحاكمة أو كما يقول ابن رشد إن المقصود بهذا الكلام أن الشيعة والخوارج وغيرهم هالكون إلا الفرقة الأموية الحاكمة. لقد قضى ذلك على التعددية السياسية. إذن، إذا أردنا

التحول من النقل إلى الإبداع فعلينا التحول إلى التعددية السياسية، وأكرر حديث الرسول عليه الصلاة والسلام "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" لأن الحق ليس واحدا ولكنه متعدد. على أية حال، المقصود هو أن الإبداع ممكن في نطاق العقيدة التي يظنها الناس مقدسة، وأعطي لاهوت العدل الاجتماعي ولاهوت حقوق الإنسان. وفي القرآن الكريم ﴿**لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾، إذن، فرب هذا البيت هو الخبز والحرية، وما العيب في التركيز على ذلك؟ إن قضيتنا هي فقر الناس والجوع والخوف ونريد الأمان. وتنهار المجتمعات عندما تكون الأمور تسير وفق مقولة ﴿**وبئر معطلة وقصر مشيد**﴾. تنهار المجتمعات عندما تكون الآبار المعطلة كناية عن تعطل مصالح الناس ويأتي إقطاعي ليبني قصرا ويعيش فيه. فهذه نظرية في العدالة الاجتماعية وإلغاء الطبقات الاجتماعية، وقضيتي هي أن أغنى أغنياء العالم من المسلمين وأفقر فقراء العالم أيضا من المسلمين، يموتون جوعا وقحطا في بنجلاديش ومالي وتشاد والسودان والصومال.

إذن، ما أسهل أن نبدع، لكن تنقصنا المبادرة، وتنقصنا الجرأة والشجاعة. ومادمت في إطار الحريات الأكاديمية وفي إطار مكتبة الإسكندرية حيث البرهان والرأي والرأي الآخر فلا خوف. وطالما أننا نمتلك أصولنا فلا خوف، لكن يجب ألا يرهبنا القدماء. الكل يتقدم. ونحن فقط المصنفون ضمن الدول المتخلفة، مع أن لفظ "متقدم" ولفظ "قديم" لهما نفس الجذر اللغوي "قدم". فلماذا نستخدم دوما اللفظ في معناه اللغوي الذي يشير إلى القديم ولا يشير إلى التقدم؟ وفي القرآن الكريم ﴿**فالسابقون السابقون**﴾ أو ﴿**لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر**﴾. فهذا توجيه قرآني لمن يريد أن يكون من المتقدمين أو من المتخلفين. ولاهوت الوحدة والذي نحن في حاجة إليه خاصة ونحن مهددون بالتجزئة الطائفية والعرقية، ﴿**إلهكم إله واحد**﴾، ﴿**وأمتكم أمة واحدة**﴾. ولاهوت الحرية الذي تؤكده عبارة "لا إله إلا الله". فكل آلهة العصر مزيفة من مال وجاه وسلطة وثروة وجنس إلا الله حيث تتأكد الحرية أمام إله واحد يتساوى أمامه الجميع. ولاهوت الهوية ﴿**ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى**﴾. أؤكد إذن على أن الإبداع مفتوح في ميدان العقيدة، وألا نكرر صياغات كانت لها أهداف أخرى. ولا يجب أن نعتقد أن هذه الصياغات قد تحقق مصالحنا وقدرتنا على الخروج من التخلف. كذلك، في علوم الحكمة القديمة في الفلسفة. ففي قديم الزمان، كان الإطار الثقافي اليونان والرومان غربا والهند وفارس شرقا. والآن تغير الإطار حيث أصبح الآن في أوروبا وأمريكا غربا وفي الصين والهند واليابان وكوريا شرقا، وفي العالم الثالث إفريقيا وفي أمريكا اللاتينية. وأتساءل لماذا لا تنشأ الفلسفة الإسلامية في هذا الإطار الثقافي الجديد؟ فلا معنى لتكرار "الشفاء" و"النجاة" لابن سينا، و"المدينة الفاضلة" للفارابي، بل آخذ روح الفلسفة الإسلامية وهي الحوار مع الثقافات المجاورة، مع اعتبار أن العصر اختلف، والزمان تغير، ونحن في إطار ثقافات معاصرة. وقد أعجب القدماء بأفلاطون. وأعجب المحدثون بكانط. وأعجب القدماء بسقراط. وأعجب المحدثون بديكارت الذي قال "اعرف نفسك بنفسك". أعجب القدماء بأرسطو وأعجب المحدثون بهيجل. وهكذا يستطيع المفكر أن ينتقل من تقليد الحكماء القدماء إلى أن يمارس الحكمة في إطار

حضاري مختلف. وقد أعجب القدماء بفكرة الإنسان الطائر التي تقول إن الإنسان نفس وفكر بلا بدن لتظل إنيته (مرجعها لفظة "إني") موجودة، لكن هذا لا يكفينا الآن. والقرآن الكريم يقول ﴿**وقل اعملوا**﴾. ودائما ما يقترن التفكير بالعمل، وقد قال بيجين "أنا أحارب فأنا إذن موجود"، ومن الممكن أن نقول "أنا أقاوم فأنا إذن موجود" أو "أنا أعمل فأنا إذن موجود". بالتالي، يستطيع المفكر لو أراد أن يعي موقفه ويعرف احتياجاته ويعرف الظروف القديمة والفرق بينها وبين الظروف الحديثة، ويبدع أداة ووسيلة لإثبات الوجود عن طريق العمل. ولقد تم تقسيم الفلسفة قديما إلى إلهيات وطبيعيات ومنطق، وقيل إن المنطق آلة للعلم أو أداة أو منطق. وقيل إنه إما أن أفكر في الله أو في الطبيعة. وفي الحقيقة، إنه نفس العلم لأن الله لامرئي والطبيعة مرئية والله واحد والطبيعة متكاثرة، نفس اللغة ونفس العلم بين إثبات ونفي. والسؤال هو أين الإنسان؟ تُدرس النفس في الإلهيات والبدن في الطبيعيات، لكن أين الإنسان من حيث هو إنسان؟ ونحن متهمون بأننا لا نعرف شيئا عن حقوق الإنسان، وأن ملفات حقوق الإنسان في الوطن العربي وفي العالم الإسلامي من أسوأ الملفات. لذلك، فإن التفكير في الإنسان إبداع جديد، لكن يجب ألا نكتفي بتكرار قسمة الحكمة الثلاثية إلى منطق وطبيعيات وإلهيات قديمة. وحتى علم أصول الفقه وهو من أحسن العلوم التي تنتقل من النص إلى الواقع يريد أن يعرف ماذا يعني التنـــزيل؟ ومن ضمن شروط تواتر الحديث الشريف – أي صحته الاتفاق مع الحس، ونحن مازلنا نروي كثيرًا من الأحاديث وخاصة الأحاديث القدسية المملوءة بالغيبيات والتي لا برهان عليها والتي قد تختلف مع شهادة الحس. وقد برع القدماء في نقد السند والرواية وهذا صحيح، لكن بيننا وبين هؤلاء الرواة ألف وأربعمائة عام فلم نعد نعرفهم، لكن نستطيع أن نعرف ما هو نقد المتـــن بمناهج النقد الحديثة. فلماذا لا نتحول ونبدع بدلا من أن نكرر نقد السند إلى نقد المتـــن؟ ومازالوا في الأزهر يدرِّسون نقد السند وعلم الرجال وعلم التجريح لكن لا أحد يقوم بتدريس نقد المتـــن. وكذلك الأمر في علوم القرآن، ومن أهم القضايا في علوم القرآن أسباب النـــزول والناسخ والمنسوخ، وأسباب النـــزول تعني أن الواقع يسأل والوحي يجيب. والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم ﴿**ويسألونك عن الأهلة**﴾ أو ﴿**ويسألونك عن المحيض**﴾ أو ﴿**ويسألونك عن الأنفال**﴾ وغير ذلك مما يدل على أن السؤال قد أتى من الأرض لتجيب عنه السماء. المهم هو أن نتساءل، ولكن ما هي الأسئلة المطروحة الآن؟ إن المحيض يجيب عنه علم الطب، والأهلة يجيب عنها علم الفلك، والأنفال يجيب عليها علم الحرب. هناك أسئلة كثيرة عن العولمة وحوار الحضارات والعبارة الغارقة واحتلال العراق والمسجد الأقصى وعن افتتان الشعب المصري بكرة القدم وعن القضاء على المعرض الدولي للكتاب في مقابل الاهتمام به، وأن نترك أيضا بسببه مؤتمر القمة الإفريقي. كل هذه أسئلة وغيرها فما هي الإجابة عليها؟ وهذا هو المنهج القرآني الذي يربط الحكم بالواقع. وكذلك مسألة الناسخ والمنسوخ والتي تؤكد أن التشريع يتطور بتطور الزمان، ونحن مازلنا نعاني من التشريع. بل إن عمر بن الخطاب تجرأ وأبطل وأوقف سهم المؤلفة قلوبهم موضحا إن ذلك كان عندما كان الإسلام ضعيفا. وصلت الشجاعة في التشريع إلى هذا الحد. فلماذا نكرر مصادر الفكر القديم ونقول إن مصادر التشريع أربعة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس، هكذا بهذا الترتيب، بمعنى أن تُعطى الأولوية للنص على الواقع؟ ولماذا لا نعطي الأولوية للواقع على النص أي للسؤال على الجواب؟ وهل نستطيع أن نحل أزمة المواصلات في الإسكندرية والقاهرة من القرآن

الكريم؟ فإن لم نجد فمن السنة فإن لم نجد فبالإجماع فإن لم نجد فبالقياس؟ أم الأفضل أن نجتهد بآرائنا، وندرس مساحة الشوارع وعدد السيارات وعلم المرور ونستطيع أن نسأل دولا أخرى مثل اليابان والمكسيك كيف حلت أزمة المواصلات. وإذا استعصى الأمر علينا نقرأ ما كتب، لكن لا نستطيع إلا بالبدء بتحليل العلل والاجتهاد المعاصر. وعندما تحدث القدماء عن الإجماع، أوضحوا أنه لو اعترض واحد فقط يؤخذ اعتراضه بعين الاعتبار، بمعنى أن رأي تسعة وتسعين عالمـًا متفقين لا يستهين برأي عالم واحد معترض على ما يقولون وإلا يكون الإجماع ناقصا. ومن هنا يتبين لنا احترام المعارضة. حتى في اللغة العربية، تتجلى عظمتها بأن لديها وسائل تحركها من النقل إلى الإبداع، لأن النص قد يكون محكما وقد يكون متشابها ومتحركا، قد يكون حقيقيا وقد يكون مجازيا، قد يكون مبينا وقد يكون مجملا، قد يكون خاصا وقد يكون عاما. فاللغة العربية نفسها تسمح بالحركة في حين جعلنا نحن كل شيء محكمًا وظاهرًا وحقيقيًّا ومبينًا. ولابد أن نضع في الاعتبار مقاصد الشارع ورعاية المصالح العامة والضروريات الخمس في الدفاع عن الحياة والعقل والمعيار العام والكرامة الوطنية والثروة، بمعنى أنه من داخل التشريع ذاته نستطيع أن ندافع عن حقوق الإنسان. كما أننا حولنا الأحكام الشرعية الخمسة بين حلال وحرام ومكروه ومندوب ومباح وكأنها كلها حلال وحرام، كلها ضيق وتضييق على حرية الإنسان، مع أن وجود المكروه والمندوب معناه أن هناك نوعا من حرية الاختيار، والمباح أن حكم الشيء في وجوده دون الحاجة إلى حكم خارجي.

على أية حال، أقول إننا مازلنا في الكتب التي تصدر في علم التصوف وفي مشيخة الطرق الصوفية وفي البرامج الدينية وفي الموالد النبوية وفي ليالي رمضان كلها تركز على التوكل والصبر والرضا والقناعة والزهد والفقر والخشية والخوف. وهذه أشياء وجدت في عصر قديم عندما استعصت المقاومة الفعلية لآل البيت وللمعتزلة وللخوارج ضد الحكم الأموي، واستتب الأمر بسياسة العصا والجزرة لبني أمية. فقال فريق من الناس إن استعصى علينا إصلاح العالم فعلى الأقل نصلح أنفسنا، ونخلق من أنفسنا عوالم روحية فنشأ التصوف. والآن، المقاومة ليس ميئوسًا منها لأنها ناجحة في لبنان وفي فلسطين وفي العراق وفي الشيشان. وبالتالي فلماذا نظل نردد القيم السلبية؟ لماذا لا يكون هدفنا دوما إلى الأعلى وليس إلى الأمام؟ لماذا يكون الهدف دائما إلى داخل النفس وليس إلى خارجها؟ لماذا يكون هدفنا دوما في الخيال يخلق عالما مثاليا من الأقطاب وليس عالما في الواقع؟ لماذا لا نحول التصوف إلى قيم ومقامات جديدة في الثورة والتمرد والغضب والنفي والاعتراض؟ وحتى في الأحوال، لماذا نتحدث عن الغيبة والحضور موجود؟ ولماذا نتحدث عن السُّكر والصحو موجود؟ ولماذا نتحدث عن الهيبة والخوف والأنس والثقة بالنفس موجودان؟ ولماذا نتحدث عن الفقد واليأس والرجاء والأمل موجودان؟ ولماذا نتحدث عن قبض النفس وبسطها موجود؟ ولماذا نتحدث عن الفناء والبقاء موجود؟ فلماذا لا نبقى في الأرض نعمر؟ نحن إذن نكرر أشياء من تاريخنا القديم ومن علومنا القديمة وننسى أنها أبدعت في عصر، والعصر قد تغير.

ملاحظة أخيرة فيما يتعلق أيضا بالعلوم النقلية التي تركناها نقلية بمعنى أن ينقلها كل شخص عن الآخر وكل جيل عن جيل دون أن نغير فيها شيئا مثل علوم القرآن والتفسير والحديث والسيرة والفقه. وهي العلوم الأكثر تأثيرا في الثقافة الشعبية، والموجودة في المساجد وفي الجوامع. وتُطبع بأسعار زهيدة لأنه انقضى على مؤلفيها أعوام طويلة، فليس لها حقوق نشر. وهناك أموال طائلة توضع في دور النشر لإعادة نشر كتب التراث، وهي أكثر الكتب مبيـــعا في المعارض. مازلنا نكرر ما قيل في علوم القرآن القديمة دون أن ندخل علوم اللسانيات الحديثة ولا العلوم الإنسانية الحديثة. وما زلنا نكرر علم الحديث القديم بنفس رواياته. وما زالت كتب التفسير الكبرى تبدأ بسورة الفاتحة إلى سورة الناس. وأتساءل أين التفسير الموضوعي الذي يجمع الآيات نحو موضوع واحد حتى نخرج ما يسمى بالأيديولوجية حول المال والزراعة والصناعة والأرض؟ وما زالت علوم السيرة تدور حول شخص الرسول وهذه العلوم كانت تضاهي علوم السيرة في الإسرائيليات حول أنبيائهم مع أن تشخيص الرسالة في الرسول أحد مصادر عبادة الفرد في حياتنا. وفي كل علوم الفقه نهتم بالعبادات ثم بالمعاملات. ومن منا يجهل العبادات؟ لكن المعاملات نجهلها. فلماذا لا نعطي الأولوية للمعاملات؟ وهناك أقسام في الفقه تغيرت بفعل الزمن مثل الصيد والغنائم والإماء والعبيد والرق ومازالت هذه الأشياء تدرَّس في الأزهر. وأتساءل أين اقتصاديات السوق؟ وأين التجمعات الإقليمية والمجتمع المدني وحقوق الإنسان ودور علوم البلاغة والنقد واللسانيات الحديثة؟

ولا نريد أن نتحرر من قيد النقل من القدماء، فنقع في نقل آخر من المحدثين، ونستبدل قيدا بقيد كما يقوم به بعض النخبة ظانين أن علاقتنا بالقديم قد انتهت وقد انقطعت وأن علينا أن نستبدل بالموروث الوافد الجديد البراق بلغته وأفكاره وربما نجاحه على مدى خمسة قرون من الإصلاح والنهضة والعقلانية والتنوير والنهضة العلمية والحداثة وما بعد الحداثة إلى آخر ما تلوكه ألسنتنا في الثقافة الغربية الحديثة. وننقل عن الغرب مع أن هناك اللجنة المصرية للتأليف والترجمة والنشر، والترجمة أحد عناصر مقومات الثقافة، لكن لابد من النشر أي تحقيق القديم. ومن الترجمة والنشر من الوافد والموروث ينشأ التأليف والإبداع. لذلك، أقول للدكتور جابر عصفور باستمرار لا تبدأ بمشروع الألف ترجمة الثاني، ولكن ابدأ بالمشروع القومي للنشر أو المشروع القومي للتأليف حتى تستطيع الثقافة العربية أن تنتقل من النقل إلى الإبداع.

وأتساءل لماذا فقدنا احترام العالم؟ لأننا رضينا أن نكون مستقبلين، ورضينا بأن نكون تلاميذ، رضينا أن نكون متعلمين، مع أن معرفة الآخر وسيلة وليست غاية. وهل دورنا نقل المعارف والإبداع العلمي؟ لقد ادعى الغرب أنها ثقافة عالمية مع أنها ثقافة تاريخية. ولا توجد ثقافة عالمية إلا بالقوة. كانت الصين قديما ثقافة عالمية والهند ومصر القديمة وبين النهرين والعرب ثم الغرب الحديث. وكما يقول القرآن الكريم ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾. لا توجد ثقافة إلا وهي بنت عصرها وتاريخها، تنشأ وتنمو وتتطور وتنتهي. لا توجد حضارة أبدية. وإذا ما اشتد النقل عن الغرب، نشأت ظاهرة التغريب حيث المولعون والمنبهرون بالغرب. فتنشأ ضدها حركة سلفية حيث المولعون بالقديم. وتنقسم الناس في الوطن العربي بين أنصار الوافد وأنصار

الموروث لدرجة الحرب الأهلية كما حدث في الجزائر والتي كلفتنا مائة وخمسين ألف شهيد. ومن كثرة بريق النقل عن الغرب، نصاب أحيانا بالدونية لأننا لا نستطيع أن نتكلم في الحداثة وما بعد الحداثة وغيرهما. في حين ينمو عند الآخر مركب عظمة لأنه هو الذي يركب موجة الحداثة. والغرب هو الذي أنشأ العلوم. وهو الذي قام بدور الملاحِظ. وهو الذي أنشأ علم المصريات وعلم الهنديات وعلم الصينيات وعلم الإيرانيات، فماذا أبدعنا نحن؟ رضينا أن نكون ملاحَظين ولسنا ملاحِظين، موضوعا وليس ذاتا. ألا يمكن أن نتحول إلى ذات وأن نحول الآخر إلى موضوع، وأن نقضي على أسطورة الثقافة العالمية، وأن ننهي عقدة النقص الموجودة لدينا، وأن نمارس دورنا في العلم، وأن نحول نمط علاقتنا بالغرب من كونه مصدرا للعلم لكي يصبح موضوعا للعلم؟ وقد نشأ علم الاستغراب نتيجة هذا الإحساس. وقد أسس مهاتير محمد معهدا لعلم الاستغراب في يناير الماضي وسأفتتحه هذا العام لكي أعلم الطلاب كيف نقوم بدور الباحث والملاحظ وليس فقط كملاحَظ وكموضوع للدراسة حتى أتخلى عن عقدة النقص وحتى لا أفقد احترام العالم وحتى نقضي على ثنائية المركز والأطراف بتعددية المراكز الثقافية وحتى نغير تقسيم التاريخ إلى قديم ووسيط وحديث والتي نضع أنفسنا فيها في الوسيط. وهذه ليست الحقيقة. فقد كانت عندنا حضارة إسلامية أعقبها عصر شروح وملخصات. ونحن نحاول أن نبدأ نهضة جديدة. ونحن الآن في مفترق الطرق، ومن يدرسون التاريخ في العالم كله يعرفون أنه ربما ما يسمى بالعصر الحديث قد أوشك على الانغلاق في ما بعد الحداثة والتفكيكية والعدمية، وفكرة إن الله قد مات وعاش الإنسان، والإنسان قد مات ولم يعد هناك أحد يعيش، وهذا هو إحساس الكتابة في لحظة الصفر. وإذا قامت الروح في التاريخ من الشرق القديم حيث الهند والصين وبابل وآشور وفارس ومصر القديمة، وحطت في الرومان واليونان وعند العرب وانتقلت إلى الغرب الحديث، فربما تقوم الروح من جديد من الغرب إلى المنطقة العربية إلى آسيا، إذن، نحن نشاهد مرحلة كبرى في التاريخ، ونحن والغرب والآن على مفترق الطرق، والذي يحدث الآن بيننا وبين الغرب حدث فعلي. فالغرب يشعر أن آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية قادمة. فأمريكا اللاتينية حيث شافيز وموراليس على الاشتراكية والثقافات الوطنية التي قطعها الأوروبي، ونحن على الإسلام والثقافة الإسلامية. فاشتراكية أمريكا اللاتينية والإسلام لدينا قد يكونان هما التياران المستقبليان اللذان يقفان في مواجهة الإمبراطورية الأمريكية والإسرائيلية. والغرب يعلم أنه ربما يكون في آخر عصوره الحديثة. ونحن نعلم أننا في بداية عصورنا الحديثة. وبالتالي فالتاريخ الآن عند مفترق الطرق.

وفي النهاية أقول، إن التحول من النقل إلى الإبداع هو التحول من الاحتماء بالنص إلى النــزول إلى أرض الواقع، وكما قال محمود درويش "واحتمى أبوك بالنصوص فدخل اللصوص". ونحن متهمون بأننا حضارة نص، وبأننا حضارة كتاب، وبأننا حضارة قول، وبأننا أخذنا قول القدماء بديلا عن قول المحدثين، إذن، ألا نستطيع أن نخرج إلى الواقع نتبين أنه حتى يتغير يحتاج إلى خطة على الأمد الطويل ليس على الأمد القصير. وقد حاولنا على الأمد القصير ثلاث مرات في تاريخنا المعاصر، دولة محمد علي وانهارت، الصرح الليبرالي وانهار في عام 1952، والصرح الاشتراكي القومي وانهار في عام 1967. والسؤال هو لماذا إذن لا نحرك التاريخ من الجذور، ونسوي الأرض بالبلدوزر قبل أن نبني صروحا؟ وكل من أراد أن يبني صرحا أن

يفعل، لكننا نمهد الأرض أولا. ليس من المهم من يحكم في القصر، فالكل سواء، ولكن المهم من الذي يتحكم في العقل. إن علينا إكمال حركة الإصلاح الديني بعد أن تعثرت، والتحول من الإصلاح إلى النهضة، العودة من جديد إلى مواجهة الواقع الذي نعيشه والذي ينبني على الترديد وتربية الآباء للأبناء وعلى عصا الناظر وعلى شرطي الطريق، ففي حياتنا مازلنا نخضع لمجتمع "سي السيد". مازلنا نخضع لمناهج النقل لأننا نتعامل مع التراث قديما أو حديثا أيضا بعقلية النقل. نحن أمام حائط منيع من الأسمنت المسلح. وكل من يضرب رأسه فيه سيتحول إلى بركة من الدماء ويظل الحائط قائما. وعن طريق المياه الجوفية والحركات السرية نستطيع أن ننـــزع جذور الأرض، لكن لماذا لا نخلخله حتى تأتي أي هبة ريح لتوقعه؟ وهذا هو التحول من النقل إلى الإبداع من خلال أسلوب خلخلة الحوائط المنيعة. بابنا مغلق، ومزلاجنا صدئ. ومهما حاولنا أن نكسره، من الأفضل أن نضع بعض الزيت في المزلاج لكي نذيب الصدأ ونديرالمفتاح مرتين. فأي هبة ريح تستطيع أن تفتح الباب. هذه هي قضية التحول من النقل إلى الإبداع. وقد ورثنا تصورين من ثقافتنا، أحدهما ثابت والآخر متحرك، والقرآن الكريم به ﴿**كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذي الجلال والكرام**﴾ وبه أيضا ﴿**وتلك الأيام نداولها بين الناس**﴾ أو ﴿**وكل يوم هو في شأن**﴾. فلماذا نأخذ بالفناء ولا نأخذ بالبقاء؟ وكان الدكتور زكي نجيب محمود يقول لنا إن عظمة الغرب هي تحوله من الثابت إلى المتحرك، ومن بارمينيديس إلى هيراقليديس. إذن، فالشرط الأساسي للتحول من النقل إلى الإبداع هو التحول من الثابت إلى المتحرك، وهذا بالفعل ما تحاول مكتبة الإسكندرية والمثقفون والمجلس الأعلى للثقافة القيام به.

صلاح فضل:

مازال الدكتور حسن حنفي الثائر كعهدنا به، يكفي أن نتذكر أنه في هذه الدقائق فتح باب الاجتهاد على مصراعيه، ثم أغرانا أن نحرك المزاليج الصدئة بسكب الزيت عليها، يكفي أن نتذكر أنه أعاد ترتيب الأولويات، فبدلا من أن تتجه إلى موضوعات العصور القديمة، تتجه إلى شواغل العصر الحديث. يكفي أن نؤكد دعوته إلى التحول إلى الإبداع الحضاري في العلم والمعرفة، في الحرية وحقوق الإنسان، في العدالة والتنمية. يكفي أن نتذكر دعوته إلى تحريك الأرض وتسويتها بالبلدوزر، أليست الديمقراطية هي إعادة تسوية الأرض بالبلدوزر حتى تنشأ فيها هذه النباتات الجميلة؟

إبراهيم زيادة:

حدث أنه في فترة ما تسبب اتباع منهج الاجتهاد في بعض الأذى لمعتنقيه مما دفع البعض الآخر إلى الخوف على أساس إنه إذا ما اختلف أحد مع أية فكرة إسلامية سائدة تكون النتائج وخيمة حتى أنه من الممكن تطليقه من زوجته. كذلك، أود أن أسأل هل اكتناز الثروات من خطط الغرب؟

محمد الجمل:

في تصوري، إن الثقافة المطلوبة حاليا إذا صح التعبير هي ثقافة الجموع أو الثقافة التي تصل للناس العاديين لأن هؤلاء هم الذين سيقومون بعملية التغيير، وهؤلاء هم الذي سيغضبون وسيقومون بعمل ثورة حمراء أو بيضاء أو أيا كان لونها، لأنه إذا انحصرت الثقافة في نخبة صغيرة فلا فائدة منها، ولن تغير ندوة كتلك التي نستمتع بها الآن إلا إذا وصلت إلى الجموع، والسؤال هو كيف يتم توصيل هذه الثقافة الثورية للجموع بالأسلوب وبالطريقة التي تجعلهم يغضبون ويتمردون وتتفجر منهم طاقاتهم الإبداعية.

محمد حسني أنور:

لماذا النظرة التشاؤمية على الرغم من أننا نعيش في عصر التكنولوجيا والإنترنت والكمبيوتر والثورة العلمية ووسط كل هذه الثورة التكنولوجية في التحديث والتطوير والتجديد؟

أشرف منصور:

عندي تساؤل عن العلاقة بين فكرة من العقيدة إلى الثورة وفكرة من النقل إلى الإبداع، إن فكرة من العقيدة إلى الثورة كان إعادة بناء علم أصول الدين، وفكرة من النقل إلى الإبداع كان إعادة بناء علوم الحكمة. وفي فكرة من العقيدة إلى الثورة كانت الإنسانيات تحل محل الإلهيات ويدعو ويعمل على إحلال الإنسانيات محل الإلهيات ويستمر في تطوير الإلهيات إلى الفلسفة ومباحثها، وأعتقد أن إعادة بناء علوم الحكمة متضمن فيه فكرة من العقيدة إلى الثورة خاصة في العناوين الجديدة بين الأقواس الموضوعة تحت العناوين القديمة، وهذه هي إعادة لبناء علوم الحكمة ولذلك أصبت بقليل من الاضطراب في الفهم فيما يخص فكرة من النقل إلى الإبداع حيث اعتقدت أن إعادة بناء علوم الحكمة أو إحلالها محل الإلهيات تم في فكرة من العقيدة إلى الثورة. كما أنني فوجئت اليوم أن فكرة من النقل إلى الإبداع تحتوي على شيء من آليات التخفي، في حين أنني كنت أعتقد أنها تستخدم الأسلوب المباشر على أساس أن الدكتور حسن حنفي ذكر أسلوب خلخلة الحوائط الثابتة من أسفل، فهل يمكن أن تكون هناك آلية تخفٍّ في فكرة من النقل إلى الإبداع بناء على هذه المقولة؟

تيسير الشوربجي:

كيف يتم توظيف المنطق في الإبداع وتوطيد علاقته بالفلسفة؟ ولو رسمنا المقدمة والموضوع والنتيجة قد تكون هناك علاقة بين كيفية تحسين الإبداع أو مزج الجديد والمستحدث مع القديم وخلق فكرة منه يمكن أن تؤدي إلى نتيجة طيبة في خلق الإبداع.

علي جلبي (أستاذ علم الاجتماع في كلية الآداب – جامعة الإسكندرية):

في الحقيقة، كان الحديث كله يدور حول فكرة من النقل إلى الإبداع، وفيما يتعلق بالنقد، فقد أفاض الدكتور حسن حنفي في جانب من النقل والتكرار، لكن لازال هناك جانب لازال يسيطر على عملية النقل وهو الاقتباس دون إشارة للمصدر. والأمر الآخر هو أنه في بعض الأحيان عندما يتجه البعض إلى النقل يستخدم التأليف محل الترجمة، وتحتاج هذه المسألة إلى الوقوف عندها لأنها تشير إلى قيم أساسية يجب أن نؤكد عليها لكي ننتقل من النقل إلى الإبداع.

أما المسألة المتعلقة بالإبداع، فقد أفاض الدكتور حسن حنفي فيما يتعلق بالإبداع، واستخدم منهج التفكيك، فهل يمكن أن نحل النقد محل منهج التفكيك في الانتقال من النقل إلى الإبداع وخاصة النقد المعياري وليس النقد الذاتي أو النقد البنَّاء أو النقد الذي يشير إلى النواحي السلبية، بل النقد المعياري وهو أحد الأساليب التي من الممكن أن ننتقل عن طريقها من النقل إلى الإبداع.

الأمر الأخير هو أننا نتجه إلى مجتمع جديد ننتقل فيه من مجتمع المعلومات إلى مجتمع المعرفة، وكنت أتصور أن يتم توظيف هذه النقلة من مرحلة النقل إلى الإبداع ومن الإبداع إلى مجتمع المعرفة.

مارك عياد:

ذكر الدكتور حسن حنفي أننا في حاجة إلى خلخلة الرأي العام، ونحن نتحدث هنا في هذه الندوة أمام العشرات ونحن نحتاج إلى توجيه هذا الخطاب للملايين، وأتساءل هل من الممكن أن تشجع الدولة على هذا الخطاب عن طريق جهازها الإعلامي؟ أنا أشك في ذلك، وقد ذكر الدكتور حسن حنفي أن من يحاول أن يجتهد يكون كمن يبطح رأسه في الحائط، وهذا الحائط تحميه وتحرسه الدولة التي تسيطر على المؤسسة التعليمية والمؤسسة الإعلامية والمؤسسة الدينية، والمؤسسات الثلاث صاحبة فكر أصولي، وهي تغذي الفكر الأصولي حتى يحافظ على سلطتها، وحتى المثقفون لا يتقبلون الاجتهاد. وفي فترة الدراسة، تعرفت على أستاذ شهير وعنده معلومات غزيرة، وفي أثناء توضيح أدوات الجراحة أوضح لنا أن هناك أداة تسمى على اسم علي إبراهيم وسأل الطلبة ما إذا كانوا يعرفون الدكتور علي إبراهيم فأجابوا بالنفي فقال لهم: "كيف لا تعرفونه وأنتم ترون يوميا صنما يمثله على مدخل الكلية!!"، وها هو الأستاذ الكبير يسخر من تمثال للدكتور علي إبراهيم ويطلق عليه أنه صنم مع العلم أن مسألة التماثيل هذه لا مشكلة فيها طالما أننا لن نعبدها، على العكس من الممكن أن أسبح اسم الله وأنا أرى عملا فيه إبداع إنسان خلقه الله ومنحه هذا الفن، أما في قديم الزمان، فقد كانت عقول البشر لم تصل إلى حد كبير من التطور مما كان يدفعهم إلى عبادة التماثيل التي يصنعونها، ونحن نبغي أن يتطور ذهن الناس دائما دون أن يكون غرضنا تعبئته بالمعلومات، ولكن في الوقت نفسه، نجد أن الدولة لا تريد تحقيق ذلك.

أحمد عبد النبي:

تحدث الدكتور حسن حنفي عن حصار الزمن المتمثل في ثلاثة أمور، حصار النقل من القديم وحصار النقل عن الحديث وحصار الحيرة في الحاضر، وأنا أفهم أن يكون هناك حصار النقل من القديم، لكنني لا أفهم أن يكون هناك حصار النقل من الحديث لأنني أفهم أن الحديث هو ثمرة عطاء الفكر الإنساني في جميع مناحي الحياة. المسألة الثانية عن الأسلحة المتاحة أمامنا، حيث تكلم الدكتور حسن حنفي عن المقاومة ثم ذكر أمثلة لهذه المقاومة مثل المقاومة في فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان، وهنا أتساءل ما المقصود بالمقاومة في أفغانستان على سبيل الخصوص؟ هل هذا النظام الذي أبيد وأعني به نظام طالبان والذي يقاوم الآن ما يطلق عليه قوات التحالف، هذا النظام الذي حرم التعليم على النساء والذي دمر الآثار بدعوى أنها تماثيل وأن وجودها حرام، هل حينما ينبعث هذا النظام الذي تبنى أسوأ صورة للإسلام، هل ما يفعله الآن من الممكن أن يُطلق عليه اسم مقاومة؟ كذلك، لماذا نتخذ موقفا من الحضارة الغربية من الممكن أن نسميه نظرية المؤامرة حتى كبار المثقفين يتخذون موقفا من الغرب وكأنه هو العدو الذي يستهدفنا في كل مكان وفي كل خطوة بينما أرى أن العدو كامن هنا في فكرنا وفي منطلقاتنا وفي ممارساتنا اليومية، وكانت الأعلام ترتفع في استاد القاهرة بينما ألف وأربعمائة مصري غارقون في عبَّارة لا نعرف حتى الآن السبب الحقيقي لغرقها، ولكننا نعتبر أن كل مشاكلنا ذات مردود ثقافي، حتى لو عندنا تعليقات تختص بالحكم أو بانعدام الحريات وغير ذلك فكل ذلك له مردود ثقافي، أعتقد أننا في أزمة ثقافية إذا أردنا أن ننتقل إلى الأمام، إذا أردنا أن نقف في وجه الغرب، وإذا أردنا أن نؤصل مجتمعا ناهضا لابد أن نعترف أننا في أزمة ثقافية، ومن هذه الأزمة الثقافية تتفرع كل الأزمات.

ماجدة عبد الراضي (شاعرة ومحررة في جريدة الحياة المصرية):

أود أن أطرح عدة أسئلة على الدكتور حسن حنفي، ما هي الشروط التي تتوافر في الإنسان لكي يكون مبدعا؟ ولماذا لا توجد مدرسة لكي تساعد المبدع على إظهار إبداعه وتوجهه توجيها سليما لكي يصل إبداعه إلى المرحلة النهائية؟ وهل عندما يكون الشخص مبدعا تتوفر له الجهة التي تساعده على ظهور إبداعه؟ كيف يجب على الجهات المختصة أن تساعد النشء منذ بداية نشأته وعلى ظهور الإبداع للوصول به إلى العالمية؟ لماذا لا يوجد مجلس قومي للطفل لربط الفكر بين الطفل والإدارات لزيادة إبداعه وتحويله إلى مبدع من خلال بيوت الخبرة؟ لماذا تساعد الدول المتقدمة الطفل على الابتكار والإبداع؟ لماذا لا يظهر البحث العلمي التطور للمبدع؟

السيد سليمان:

أثار الدكتور حسن حنفي قضية النص، وهي قضية ليست جديدة، فكل من تعامل حداثيا مع قضية الإبداع والنقل ابتداءً من الدكتور نصر حامد أبو زيد وانتهاء بكثيرين، وأود أن أركز على مسألة إشكالية نقد النص في ضوء فكرة من النقل إلى الإبداع، وكل الأمم التي أرادت أن تتحضر نقلت عن الآخر الأكثر حضارة منها، ولم يكن النص عائقا عندما نقل المسلمون في أول الأمر، فهم لم يحرفوا النص ولم يخرجوه عن سياقه في حين أنهم أبدعوا، فقد كان النقل مصاحبا للإبداع، وقد حصر الدكتور حسن حنفي مثلما حصر محمد أركون آليات جديدة للتعامل مع النص وذلك بتطبيق علوم مثل التفكيكية واللسانيات والأنثربولوجيا وعلم النفس والتاريخ والنظرية التأويلية عند نصر حامد أبو زيد والنظريات الأخرى عند بوريكير وجولدمان وفرويد وماركس ونيتشه وذلك كله لمحاولة فك رموز النص وتحويله من نص إلهي إلى نص بشري. وعندما نرى صعود التيار الإسلامي في مصر وفلسطين في ظل العولمة نقول إن هناك هويات حقيقية تعود، والسؤال هنا هو هل النص هو العائق الوحيد أم أن هناك مناخ يعوق الإبداع؟ وكانت تجربة محمد علي تجربة هرمونية، فقد أفقد إنسان أمة قدرتها على المسيرة، وأصبحت دوما أسيرة رجل واحد مثلها مثل رجل يأخذ هرمون ليساعده على السهر لفترات طويلة لينجز أعمالا متأخرة، ثم بعد أن يزول أثر هذا الهرمون يدفع هذا الرجل ثمن عمله المتواصل بهذه الطريقة سنوات طويلة من عمره في النوم. ونستطيع أن نستنسخ محمد علي في صورة أي حاكم، وكلما يذهب حاكم نحلم بغيره حتى فقدت الأمة ذاتها وقدرتها على الإبداع، لأننا لازلنا أسيرين لشخصية الأب الذي نبكيه جميعا بعد وفاته دون فعل أي شيء آخر. إذن، فإن قضية النص هذه لم تكن قضية عند المسلمين، فعندما نقلوا لم يخرجوه من سياقه الظاهري ولم يفككوا النص ولم يستخدموا الهارمونيتيكا والتأويل، وقد قال محمد عبده إن الإسلام يتوافق مع كل شيء جيد، أما من أتوا بعد محمد عبده قالوا إن الإسلام يجب أن يتوافق مع من يأتي بعده، وأتساءل هل الإسلام ذو طبيعة خاصة؟ إن بإسرائيل يمين متطرف عنيف، وإذا نظرنا في القومية الهندوسية وكيفية تعامل الحكومات مع السلبية وكيف حيـَّدت العناصر السلبية من هذا الفكر لتعلمنا، لقد تعاملت الهند مع المشكلات التي أثارتها القومية الهندوسية التي هي عقيدة بالغة التخلف، وانطلقت إلى التقدم، وقد قبلت كل من ألمانيا واليابان صدمة الاحتلال وعملوا تحت ظلها، ومازالت اليابان تعمل مع وجود أماكن محتلة بها ونحن نبحث عن التحرر ثم لا نعرف ماذا نفعل بهذا التحرر؟ وأتساءل كيف سنفكك النص لكي نعيد تأويله؟ فهل سنطبق تفكيكية محمد أركون أم سنطبق أسلوب نصر حامد أبو زيد؟

علي الرجَّال:

إذا تحدثنا عن تقدم المجتمعات العربية فسنجدها دوما تنحسر ما بين عاملين، العامل الأول أزمة العقل العربي الحديث مع مراحل تطوره في العقود السابقة، والعامل الثاني هو فساد نظم الحكم والذي اجتمعت عليه جميع البلاد العربية. وهناك علاقة بين فساد نظم الحكم واضمحلال العقل العربي، فعندما يكون هناك

اضمحلال في العقل العربي فإن فساد نظم الحكم يبدأ في الزيادة، لكن المشكلة الحقيقية الآن إننا لو نتحدث على صعيد النخبة المثقفة، فدائما يوجد صراع فكري يولد عائق للتقدم، ويتسبب في إيقافنا عن الحركة، وعلى سبيل المثال المعركة بين النخبة المثقفة ممن يسمون أنفسهم التنويريين والإسلاميين، وفي ظل نظم الحكم الفاسدة في كل الدول العربية تظل هذه المعركة مشتعلة، ويظل التخلف موجودا، وكل من الجانبين يصر على آرائه ولا يستطيع أحد أن يرى الحقيقة ولا كيف سنتحرك، وكل منا يرى الحقيقة من منطلقه الخاص، ولا أحد يتحرك نحو فكرة أننا نستطيع أن نتقدم، لكن لا يوجد من يستطيع أن يتحرك نحو التقدم. وفي المقابل، هناك قضية مثارة ولا أفهم سبب إثارتها وهي قضية تأويل النص، على الرغم من أنني في حاجة إلى التأويل لأن التأويل هو إخراج اللفظ من معناه الظاهري إلى معناه المجازي، ولا أعتقد أننا نحتاج إلى ذلك في الوقت الحالي لأنه حتى تصادمات الدين مع العلم في الوقت الحاضر ليست تصادمات عنيفة لأننا لم نصل إلى مرحلة تقدم كبيرة، وعلى سبيل المثال إذا تحدثنا عن نظرية داروين، هذه النظرية ليست النظرية العلمية التي من الممكن أن يتم الاعتماد عليها في تأويل النص، ونحن لا نحتاج على التأويل لأنه ليس لدينا برهان ثابت، وعلى حسب قانون التأويل الذي وضعه ابن رشد: إن كل ما أدى إليه البرهان وخالفه ظاهر الشرع إن هذا الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي"، وكان هو الذي وضع كلمة "قانون التأويل العربي" بمعنى المحافظة على لسان العرب، والغريب أن نثير في أيامنا هذه قضية التأويل، وأود أن أعرف لماذا؟

أيضا، لا أستطيع أن أفهم الصراعات الفكرية بين التيارات، ولا أحد ينتبه إلى أن المسألة في النهاية هي الاهتمام بهزيمة الآخرين وليس بالوصول لمرحلة معينة من التقدم. ونستطيع من محاضرة اليوم أن نخرج بأشياء عدة تساعدنا على التحرك والتقدم وعلى إنهاء خلافاتنا، لكن ذلك لن يحدث لأنه لو كان قد حضر الآن أحد من الاتجاه السلفي أو الإخوان المسلمين، فإنه كان سيغادر القاعة، والعكس صحيح، وتستمر المأساة لأننا لا نتحرك إلى الأمام بل إن كل همنا أن فريقنا يهزم الفريق الآخر. وأتساءل ما المثير في أن أبدأ في أن أتناقش حول العقيدة الإسلامية أو حول أن الإسلام محور التخلف أو أن المشكلة عندنا في النص؟ في حين أنني أعتقد أن الكثير من العلماء قد تطرقوا إلى هذا الموضوع وأنجزوه منذ زمان طويل. ولا داعي لأن نقول إن النص هو سبب الإرهاب، لأن هناك آيات قد أصبح مفهوما معناها، وأن بعضها نــزل لغرض معين مثل بعض الآيات مثلا التي تحض على حرب الكافرين. فلا يمكن أن نفسرها الآن على أنها تحض على الإرهاب لأن هناك سببًا لتنــزيلها. ثم نعود لنتحدث عن الآخر وما هو مفهوم الآخر في الإسلام، والسؤال هو ما الحل للخروج من أزمة الصراعات؟

حسن حنفي:

أجد في القاعة التيارات التي أفكر فيها، فهناك التيار الغربي والتيار السلفي والتيار الحائر بين الاثنين. وهذا كله صحيح وموجود. بطبيعة الحال، نحن مازلنا نعيش عصر الآباء وليس عصر الأبناء والأحفاد. فما معنى أن نقول لا اجتهاد مع النص؟ بل هناك اجتهاد مع النص، فالنص قول، والقول يحتمل التأويل بطبيعة اللغة، وليس بطبيعة المؤول وأهدافه، وبالتالي فإن أحد شروط الإبداع هو الانتقال من النص إلى الإبداع لأن

النص نفسه كان إجابة على واقع. التأويل هو عودة إلى الواقع الذي نشأ منه النص. النص نفسه حكم والواقع قد تغير والحكم قد تغير بناء على الواقع، وبالتالي، فإن النص بطبيعته لقطة بالكاميرا في واقع، لكن هذه اللقطة أصبحت لا تساوي الواقع لأن الواقع قد تغير. وبالمناسبة، فإحدى المجلات نشرت صورة عارية لبريجيت باردو على الغلاف وكتب تحتها "بريجيت باردو"، فذهبت بريجيت باردو إلى محامي فيلسوف لرغبتها في مقاضاة المجلة التي نشرت صورتها كغلاف دون أن تستأذنها، فذهب المحامي إلى القاضي وقال له إن هذه المجلة أخطأت ليس في أنها لم تأخذ إذنا، فبريجيت باردو تعطي الإذن ولا مشكلة، لكن المشكلة هو أن المجلة وحَّدت بين لقطة واحدة لبريجيت باردو وهي عارية وبين حياة بريجيت باردو المتنوعة المتعددة الوجوه والمتغيرة، وأنه لو كانت المجلة قد قالت لقطة من حياة بريجيت باردو أو لقطة عابرة لها لكان من الممكن أن يمر الأمر، أم أن تساوي المجلة بين المتغير والثابت فهذا هو الخطأ الذي قامت به هذه المجلة، وعلى إثر ذلك كسبت بريجيت باردو هذه القضية. إذن، فخطؤنا، هو أن النص لقطة واحدة لواقع متغير، ومشكلتنا أننا تركنا الواقع المتغير للنص الثابت، وهذه هي القضية. وقد عددت هنا بعض أشياء مثل نقل التراث الشفاهي من الآباء والأبناء والأسطى والصبي، وبعض الأمثال العامية مثل "الباب اللي يجيلك منه الريح سده واستريح" وأتساءل ولماذا أسده وأستريح؟ عليّ أن أتركه مفتوحا ربما يأتيني هواء، وأمثال أخرى من نوع "من فات قديمه تاه" و"إن فاتك الميري اتمرغ في ترابه" وغيرها، فهنا يظهر الموروث الثقافي الذي مازال يؤثر في سلوك الناس. وبطبيعة الحال، لا نستطيع أن نغير العالم من خلال العشرات الجالسين في قاعة مغلقة، لكننا أيضا نستطيع أن نؤثر فيهم بحيث يؤثرون في غيرهم، أو كما يقول إقبال "إنما هذا البحر إلا من هذه القطرات". فلا يجب أن نستهين بالعشرات لأن العمل الطويل الدؤوب له ثقله. وأنا في الجامعة منذ أكثر من نصف قرن. وما مازلت في الجامعة أكوِّن شبابًا جدًا معروفين وغير معروفين في مصر وفي العالم العربي وفي الغرب وفي الشرق وفي آسيا وأفريقيا. ولقد جربت التغيير من خلال الأحزاب ومن خلال المجتمع المدني، لكن الجامعة إمكانية ضخمة للتغيير على الأمد الطويل. أنا لست متشائما، ولن تقضي التكنولوجيا على تفاؤلي، بل عندي خطة للتغيير للأمد الطويل الذي لا يكبو. وأنا وقد تجاوزت السبعين، عشت أربعة نظم سياسية منذ العصر الملكي، العصر الملكي الليبرالي ثم العصر الاشتراكي ثم عصر الانفتاح ثم هذا العصر الذي لا أدري كيف أسميه. فهو عصر الثبات وعدم الحركة، أو السير في المكان، فكل ذلك حدث في عمر إنسان واحد. إذن، ليس الحل هو التكنولوجيا، لكن الحل هو كيفية العودة إلى التاريخ من جديد، واستئناف حركة التاريخ من جديد.

إن عنوان من النقل إلى الإبداع ليس عنوانا لكتاب علوم الحكمة، لأن القضية الحضارية الأعم وهو كيف نستطيع أن نخرج من إطار التقرير ونقص الخيال إلى إطار أكثر حركة، فإيران مثلا على الرغم مما نقوله عنها، إلا أن عندها خيالاً سياسيًّا ونوعًا من التحدي وكذلك تركيا والمغرب وبالطبع إسرائيل، أما نحن فلم نعد نمارس الخيال السياسي، ومحاضرة اليوم ليست فيها آلية من آليات التخفي.

حول مسألة الصلة بين المنطق والفلسفة، أقول إننا تصورنا المنطق لحظة واحدة في التاريخ وهو المنطق الأرسطي. وأنا أستعمل هنا المنطق الشعوري، أو منطق تحليل التجارب الحية والمشاركة مع آخرين. وبالتالي فالآلية في المنطق متغيرة مثل الفلسفة.

وحول مسألة الاقتباس دون ذكر المرجع، أقول إن هذا يحدث بالفعل، بل إن البعض أيضا يترجم ويدعي التأليف، لكن ذلك لوجود نقص في عمليات الإبداع، لأنه نقل ونحن نموه على أنفسنا بأنه إبداع.

وحول مسألة المنهج المعياري، أتساءل ومن الذي سيضع المعيار؟ أخشى أن يكون المعيار أحد بدائل النص، أي الشيء الثابت الذي لا يتغير. وبالتالي قد يكون مانعًا من موانع الإبداع أكثر من كونه محفزًا على الإبداع.

حول مسألة الانتقال من مجتمع المعلومات إلى مجتمع المعرفة أقول إنه في رأيي أن هذا ليس تحقيبا لمراحل، وهناك فرق بين المعلومات والعلم، ونحن نعاني ذلك في لجان الترقيات في الجامعة، حيث نعطي شابا باحثا موضوعا جديدا للبحث فيه فيضغط على أزرار الإنترنت ويخرج سلسلة من المقالات ويضعها بجوار بعضها البعض، فهذه معلومات وليست علما، لكن العلم هو ما تقرأه من بين السطور، وهو استنباط المجهول من المعلوم، وليست إعادة أرشفة وتنظيم وتنسيق المعلوم.

وقد استطاعت فيتنام في حرب التحرير وبأبسط الوسائل العلمية والتكنولوجية استطاعت أن تقضي على أكبر آلة جهنمية، كذلك كتائب القسام الفلسطينية تستطيع من مصانع الحدادين في غزة أن تطلق الصواريخ على المستوطنات الإسرائيلية. ومن هنا أقول إنني أخشى أننا نستعمل المعلومات ومجتمع المعرفة ومجتمع العلم كنوع من الإرهاب الجديد أو كنوع من المفتاح السحري الذي يستطيع أن يفتح به مغاليق الأمور. وكنت أضرب المثل بمن يقول إننا نريد أن نحول الريف المصري إلى قرية تنتمي إلى مجتمع المعرفة وإلى قرية تكنولوجية بقصة لتنفيذ ذلك. أحضرنا آلة حديثة حيث ندخل البرتقال من ناحية لنخرج من الناحية الأخرى عصيرا معلبا، وندخل بقرة من ناحية لتخرج من الجانب الآخر علب بولوبيف، وفي وقت من الأوقات انقطع التيار الكهربائي، وحدث عطل في هذه الآلة المعجزة التي تحول الأشياء. وبعد جيل أو جيلين كسوناها بقماش أخضر وطربوش أحمر، وقلنا إنه في قديم الزمان كان هناك الشيخ "آلة" وهو ولي من أولياء الله الصالحين وكان يقوم بالمعجزة!! وذلك لأن العقلية العلمية التي تعتمد على العلة والمعلول لم تكن موجودة، ولكن العقلية السحرية الإعجازية هي التي كانت موجودة. ومن ثم فإن تغيير العقل وتغيير العقلية هو الذي يحول المجتمعات.

وحول مسألة أفراد أو دولة، أقول إن الدولة تُعد نصًّا، لكنه نص سياسي واجتماعي لا يجوز الخروج عليه. وبالتالي لا نستطيع أن نطلب من الدولة أن تراعي الإبداع، والجامعة بالنسبة لرئيس الجامعة هو العام

الدراسي الذي يمر بدون مظاهرات، فأين العلم والمنهج والبحث؟ إن لسان حاله يقول أنا هنا لأراعي الأمن والنظام وأنا معين، إذن، فالدولة هي النص الكبير، النص الاجتماعي والنص المؤسسي، لكن لا يجب أن نقلل من شأن إبداع الأفراد، فالإبداع باستمرار كان فرديا، ولا ننسى سقراط الذي تحدى المجتمع الأثيني كله، وجاليليو الذي تحدى الكنيسة وغيرهما، حتى الأنبياء كان لهم إبداعهم، إذن، فالأفراد مرتبطون بالإبداع والدولة مرتبطة بالنقل.

وحول مسألة أن الحصار من القديم ولكن لا حصار من الحديث، أقول إن هذا استبدال سيد بسيد. فلا فرق عندي بين من يقول قال ابن تيمية ومن يقول قال كارل ماركس. فكلاهما حجة النقل وحجة السلطة، وليس حجة العقل أو حجة البرهان. فلا يهم ما هو مصدر النقل، ولكن المهم منطق أو منهج النقل، فالحصار من القديم ومن الحديث معا. وفي هذا السياق أنا لا أقصد الدفاع عن جماعة طالبان ولكنني أدافع عن الاستقلال الوطني للشعوب ضد الغزو الأمريكي للعراق ولأفغانستان، وذلك بغض النظر عن صدام حسين. وليس من أجل طالبان سأدافع عن الغزو الأمريكي، لأنني لا أريد أن أستبدل سيدًا بسيد.

وحول السؤال عن شروط الإبداع، أقول إن كل الحلول المقترحة من قبيل النقل والنص، فالمدرسة تعلم النقل وليس الإبداع. والتوجيه نقل وليس إبداعا. والجهة المساعدة نقل وليست إبداعا. والجهات المتخصصة والمجالس القومية كلها وسائل نقل وليست إبداعًا.

وحول مسألة أن النص ليس عائقا، وأن هناك مناخا عاما من التدهور الثقافي، أقول عن النص أنه رمز. ويمكنني أن أعتبر أن "سي السيد" نص، ورئيس الدولة نص، ورئيس المؤسسة نص، والوزير نص. النص هو السلطة المسبقة التي نستنبط منها الأحكام والقيم. وبالتالي، فإن الغرب هو مجرد علوم وسائل وليس علوم غايات.

وحول مسألة الاستقطاب الشديد بين التيارين، أقول إن التأويل هو أحد الطرق في القضاء على هذا الاستقطاب، تأويل القديم للقضاء على سلطته، وتأويل الجديد للقضاء على سلطته. ونعود إلى الحدس المباشر كما يقول برجسون وإلى الاتحاد بالواقع حتى نستطيع أن ندرك ماهيته. وأنا هنا لا أتحدث عن الإسلام تحديدا ولكنني أتحدث عن الموروث الثقافي الذي مازال يؤثر في حياتنا ويعطينا تصوراتنا للعالم وموجهاتنا للسلوك.

صلاح فضل:

نشكر المفكر الحر الدكتور حسن حنفي على محاضرته القيِّمة.